● كانت هذه القصيدة ستظهر في « الثقافة الجديدة » قبل غيرها ، ولكن حدث ان سبقتنا مجلة « الطريق » اللبنانية (ع 5 ـ اكتوبر 1979) الى نشرها . شعر ادونيس يستحق ان يقرأ في اكثر من مجال ، خاصة وان هذه القصيدة فرائدها . وها هي الآن راقصة على صفحاتنا كما لو كانت قد ولدت لاول مرة .

عندما تقاطع صمتك اصوات هذه القصيدة تتحرك يداك في انتشاء ، تفتح ازرار الجبة ، تخلع النعل والجوارب ، تدخل فسحة الاغراب والذهول . لا تتلكأ هذا مكان آخر يجيء اليك ، يمحو ما تراه ، ويحضر ما لا تراه كأنه التطريس . كيف نقرأ ابجدية الريح والروح ؟ ها هو ادونيس معتز بعشقه ، يوقظ الاحجار ، ينسى عينه على نخلة ، يده على اسم ، نفسه في حالة ما ، والنضاء القبيلـه .

« كـذبـوا
مـا تـزال طريقـي طريقـي
والجنون الذي قادني ما يزال امير الجنون »

حين يختار الانتقاد ادونيس ويخضع لسلطـة الشعارات ، عبثـا ان نسأل : لمـاذا يختـار الانتقـاد ادونيس . ليتقدم كـل منكـم بكتابـه ، وليقرأ علينا ببيان خروجه . لا ننفعل ولا نأسف ، أمامنا الحقيقة ، الحقيقة المعزولة المنعزلـة .

من اين نبدأ ؟ الشعر اسبق من القراءة وسابق عليها ، والشعر سيد الكلام . هذا ما يقوله رومان جاكبسون . كل قراءة تعلن عن محو آخـر / يقظة اخرى للبصر ، وفي هذه القصيدة انشباك لا حد له بين محاور الشك واليقين ، الفوضى والانضباط ، الدلالـي والتماسك ، الباطن والظاهر ، العتمة والضوء ، القادم والراحل ، الحبسة والكلام ..

لنترك قليلا من الوقت لقراءة متكاملة . لن نواجه الآن سوى بعض من علائق المكان بالنص الغائب .

تصر هذه القصيدة على مقاربة النص الغائب . وهو ، كمـا نعلـم ، متعدد ولا متناه . منه ما انتقل الى الذاكرة عن طريق البصر ـ الكتابة ، ومنه ما تسلل من بين الاذن ـ السماع ، لا تاريخ له ، فهو مع الطفولة يوجد، ومعنا يكبر . ذهاب وايابه ، تذكر ونسيان . تلك عادته . لا يمكن ان ننطق، نكتب ، دون ان نكون قد سمعنا ، رأينا . بديهية ، نعم ، ولكـن ليست كذلك دائمـا .

وقصيدة ادونيس هي هذه النصوص كلها : مرئية او مسموعة . لا فرق بين كلام الناس في الشارع وكلام الكتب ، كل يختار سبيله الى القصيدة ، بعد المرور عبر قنوات الوعي واللاوعي . لكل مرحلة تاريخية ، وكل فئـة اجتماعية قانون خاص لقراءة النص الغائب . يختار أدونيس قانون الحوار ، كاساس لاعادة الكتابة . اصوات هذا النص تلتحم في صداقة الطريق ، لا نفاجأ حين ينتهي الينا كلام عن المحبة ، قول عن قوة البصيرة ، اعلان امرأة عن شهوتها ، كل يزاحم غيره ، والتناقض الحقيقة .

يتحول النص زوبعة تعيد ترتيب المكان ، وما هو النص ان لم يكـن التناقض الخالص ؟

● ان المكان (فضاء المغرب) هو الجسد الذي تفككه وتركبه هذه القصيدة . انها الاستمرار في قراءة صوفية ـ اعني الكشف . قراءة تستحضر

الرؤية الباطنية بجموح يبدع الحوار ، كل شيء ينحل في نقيضه : الحي / الجامد ، المنطوق / المكتوب ، البعيد / القريب ، والكشف سقطة الباطن على الظاهر ، محو العابر وترسيخ الجوهر .

ليس أي مكان . يختار أدونيس مراكش ـ فاس لمجموعة اولى ، أنها المتن . مكان يلغي مكانا آخر : الدار البيضاء ، كنموذج للاستيلاب .

هناك اكثر من قراءة للمكان المغربي . قراءة رسمية (يكفي كتاب « الاستقصا » لاعطاء فكرة عنها) ، قراءة استعمارية (معممة في كتابات القرنين 19 ، 20) ، قراءة سياحية (راجع منشورات مندوبيات السياحة)، قراءة الاستيلاب (اغلب ما كتبه الصحافيون المشارقة عن المغرب) ، قراءة شعبية (غير مدونة) .

ان المكان موجود موضوعي ، لا يتغير ، ولكن القراءة هي التي تقربه منا / تبعده عنا ، بقوانينها الخاصة . نحن في مواجهة بنيتين : بنية المكان وبنية القراءة . طبعا ، لكل من القراءات الرسمية ، والاستعمارية ، والسياحية ، والاستيلاب سلطة ، انها المحون والسائد . اما القراءة الشعبية فهي شريدة آنا ، واسيرة آنا . قراءة أدونيس تائتلف مع البنية العميقة للقراءة الشعبية ، وتختلف عن القراءات الاولى ، تلغيها . انها قراءة مضادة، تتبنى الانشقاق والنقصان .

● قبل مراكش ـ فاس هناك طنجة كمدخل لقراءة المكان المغربي . هكذا تنفتح المجموعة الاولى على بدايتها تاريخيا وجغرافيا :

« انها طنجة ، المدى الذي يحارب القلب

ولا يسالم العين » .

يمكن لنا بدورنا ان نفكك ونركب المكان المقروء حسب مجموعتين صغيرتين :

م. ا. : سلاسل فرعية :

1/ طنجة = الصباغين + طريق السميحيين + باب العصا + باب البحر + باب البارود .
2 / مراكش = قصر البديع + جامع الفنا .
3 / فاس = وادي الشرفاء + جامع القرويين + جبل زلاغ + باب المحروق + باب الفتوح .

م. ب. : تقاطع الامكنة :

1 / ايموزار ـ طنجة ، ●
اصيلة ـ اغادير .
2 / لا جامع الفنا ، لا جامع القرويين .
3 / مراكش ، ايفران ، ايموزار ، فاس .
4 / بيروت دمشق الرياض بغداد القاهرة .

5 / مراكش	دمشق	القاهرة
بغداد	القدس	فاس

● تعتمد المجموعة (ا) على القراءة الاستعمارية ، والقراءة التاريخية النقدية ، في الاولى يحيى الموات (باب العصا ـ باب البحر ـ باب البارود ـ جامع الفنا ـ باب الفتوح) ، هذه تسميات واقعية ، توجد في كل من طنجة ومراكش وفاس ، وقد توجد بعضها ، أو ما هو قريب منها ، في مدن مغربية اخرى . هذه الاستعارة التي هلكها الاستعمال اليومي ، وافرغها من شاعريتها، نحسها تنهض من رمادها ، تتحول عن دلالتها ، تصبح مدخلا لعالم ما . كم تظهر اسماء العصر الثالث حقيرة ، وكم في القديم من عناصر التغير ! في الثانية يخرج على القراءات السائدة للمكان المغربي ، فيقول ما لم يقله الاخرون . نموذجان فقط :

« قصر البديع » في هذا النص محو له في النصوص الاخرى . نحن الآن امام الاسرى ، اختناق الصحق ، الزنزانات ، حشرجات القتلى . ياخذ النص صفة الشهادة ، ويلبس المكان الذاكرة . من قبل كنا نقرا : وهذا البديع دار مربعة الشكل وفي كل جهة منها قبة رائقة الهيئة وتحف بها مصانع اخر من قباب وقصور ودور فعظم بذلك بناؤه وطالت مسافته » ، كنا نقرا ايضا قصيدة الفشتالي ، في القراءة السائدة نقل للتسمية من الشعر الى المعمار ، هذا كتاب البديع لابن المعتز ، وهذا قصر البديع للمنصور السعدي ، وليست المقارنة عفوية . بديع من ؟ واسر من ؟ مرحبا بك ايها الحوار .

تنفذ الى فاس من « وادي الشرفاء » . هذا مدخل الدم ، تنسى المداخل الاخرى . اي دم بنطقه ادونيس ؟ واي شرفاء ؟ تطمئن العين المستلبة الى الاجترار ، تنتهي عند القباب كدليل للما بعد ، والما فوق ، اما هنا ، فان الدم هو اللغة الاولى ، ابتداء من ابن ابي العافية الذي ذبح الشرفاء الادارسة الى العصر الحديث ، حيث ذبح اكثر من شريف . تتقدم اليك فاس من خلال التاريخ المنسي ، وبين الحقيقة والحقيقة تاخذ القراءة موقعها النقدي، لا تتكروا الجناس ، ليست فاس هنا رمزا للبرجوازية المغربية ، ولكنها بالاحرى فاس الدامية ، فاسنا .

● في المجموعة الثانية (ب) نلحظ تقاطع الامكنة ، يمتزج الهنا بالهناك ، والاحتمالات واحدة . هذا ما لا تذكره القراءة السائدة للمكان المغربي التي تنطلق اساسا من التوازي : المشرق / المغرب ، جامع الفنا / جامع القرويين ، مراكش / فاس ، ايموزار / طنجة ، اصيلة / اغادير ، تجنح القراءة السائدة الى اقرار النزعة الذرية من ناحية ، ومبدا التراتب من ناحية ثانية . هذه القراءة تبرر الايديولوجيا ، اي ان المكان المغربي ـ العربي مفتت في اصله الى وحدات جزيئية ، يربط بينها كلام او شبه كلام ، اي انها فرق قبل ان تكون علاقة ، فيبقى الكلام خدعة . ينفتح المكان على جرحه عند ادونيس :

« عسس يطوق الهواء ويكبح هديل الحروب
عسس يكسر اعناق الشجر ويداهم الورد »

خصيصة المكان المغربي ـ انه معلق بين التدوين والرماح . من هنا تطلع الوحدة ، ولاجله توجد . ان القراءة المتوازية ملموسة وطنيا وعربيا ، توزع العالم الغربي حسب النفوذ والمصالح . قراءة تشرع للاستغلال والمقالية بين الفئات المسيطرة . دمشق في مكان ما ، وفاس في مكان ما ، واغادير في مكان ما ، اماكن لا مكان . موجودة بنفسها لا بغيرها . مراكش وفاس في الصيغة المضادة نواة لالتقاط الامكنة الاخرى ، لا غياب بل الحضور ، لا تغيب بل تصميم الزنازن ، ولون الدم ، وحالة التطويق .

بين التوازي والتقاطع مسافة الوعي الحقيقي .

● يخفي هذا المكان المغربي المنسي ببلاد مكان اخر ، يناقض ما تراه العين الساذجة ، يسميه ادونيس ، فيخلط بين الحقيقة والمجاز ، يبدل رمزا برمز ، ورقة بورقة ، حاضرا بمستقبل . تخييل لعلامة توجد هناك . نكتفي بالاشارة .

● ان المكان الذي يقراه ادونيس غير منفصل عن الزمان ، والزمان نفسه غير منفصل عن الانسان . لسنا ، اذن امام مكان لا تاريخي ، مكان ميتافيزيقي ، وبالتحديد قراءة ميتافيزيقية للمكان المغربي . لسنا ايضا امام قراءة لاهوتية ، فما يمحوها هو النقد المزدوج . مكان ادونيس يناهض النص الغائب السائد ، له العنف والمواجهة ، وليس من معبر اليه سوى الوعي النقدي وقد استوى في فضاء الكشف ، وتلك قصيدة ادونيس .

محمد بنيس